

للمستعربين في تسيير وتنظيم مختلف شؤونهم الدينية، بينما احتفظت السلطة الإسلامية بحق الإشراف والمراقبة وواجب توفير الأمن. منذ دخولهم الأندلس ضمن المسلمون لسيادتها حرية العبادة، فكان الفاتحون يبعثون رسلاً إلى سكان المدن قبل وصول الجيوش الفاتحة إلى أبوابها، ليؤمنوهم على أرواحهم ودينهم وممتلكاتهم. من ذلك أن موسى بن نصير عندما اقترب بجيشه من مدينة سرقسطة (Zaragoza)، وشعر بهلع أهلها ونية قساوستها ورهبانها على مغادرتها، بما تيسر لهم حمله من ذخائر وكتب مقدسة، أرسل إليهم رسلاً يؤمنهم ويعطيهم عهده.^(١٣) وكان الفاتحون إذا دخلوا مدينة ما، فرضوا على من رغب من أهلها في البقاء على دينه، دفع الجزية مقابل الحرية الدينية والأمن والاحتفاظ بدور العبادة.

تواصلت حياة المسيحيين طليعية في المدن المفتوحة، وأصبح بإمكانهم أداء شعائهم الدينية بكل حرية،^(١٤) وقد أقر سيموني، رغم عدائه الشديد للإسلام والمسلمين، بهذه الحقيقة في كتابه، إذ اعترف بأن الكنائس في الأندلس لم تمس بأذى خلال الفتح، وأن عدداً كبيراً من الأساقفة والقساوسة والرهبان الذين فروا عند دخول المسلمين، ما لبثوا أن عادوا إلى كنائسهم بعد تأكدهم من تسامح الفاتحين تجاه أصحاب الديانات الأخرى ومعابدهم.^(١٥) لقد حافظت الكنيسة على سلطتها الروحية على أتباعها، وعلى ممتلكاتها وعلى إمكانية اكتساب ممتلكات أخرى عن طريق الوقف أو الهبات،^(١٦) كما التزمت السلطات الإسلامية في الأندلس بعدم التدخل في الشؤون الدينية للمسيحيين فيما يتعلق بالعقيدة وطرق أداء الطقوس التعبدية وعمليات انتخاب رجال الكنيسة لتولي منصب ديني، إلا إذا كانت الشخصية المنتخبة قد ناصبت الدولة الإسلامية ودينها وهياكلها العداء.

من ذلك أنه في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي انتخب أساقفة مطرانية طليطلة (Toledo) الراهب القرطبي إيلوخيو (Eulogio)^(١٧) لتولي منصب أسقف طليطلة، مع العلم أن هذا الأخير قد جهر بعدائه لكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، وكان يدفع الرهبان والراهبات إلى سب الدين الإسلامي والرسول محمد ﷺ جهراً، فرفضت السلطة الإسلامية توليه هذا المنصب، ولكنها في الوقت ذاته لم تعين ولم تقترح أحداً آخر مكانه، وظل المنصب شاغراً إلى غاية وفاة إيلوخيو سنة ٨٥٩/٢٤٥ هـ م.^(١٨) أما إذا لم يكن هناك أي سوء تفاهم بين الشخصية المرشحة لمنصب كنسي والسلطة الإسلامية، فإن هذه الأخيرة تلتزم الحياد.

ففي سنة ٣٩٢ هـ/ ١٠٠٠ م حكمت إحدى المحاكم الإسلامية على أسقف مالقة (Malaga) بالسجن خمس سنوات، وأثناء تنفيذه لهذا الحكم اجتمع المجمع الكنسي، وعين أسقفًا آخر مكانه، ولكن بعد إطلاق سراح الأسقف الأول رفض الثاني التنازل له عن منصبه، فشب خلاف بين الأسقفين اضطر على إثره الأول إلى السفر إلى روما والاتصال البابا الذي أمر بإرجاعه إلى منصبه، كما

الاستفادة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذا العرض البسيط، لتوضيح الوضع الحقيقي لنصارى الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، وتحديداً في عهد الدولة الأموية، وكذا تصحيح الصورة التي رسمها بعض المؤرخين المتأخرين المتعصبين من الأسبان وغيرهم، عن هذا الوضع.

الوضع الديني لنصارى الأندلس على عهد الدولة الأموية

حظي أهل الذمة عامة والنصارى خاصة بمكانة جيدة في المجتمع الأندلسي المسلم ويعود ذلك حسب رأيي إلى أسباب أذكر منها:

- تعاليم الدين الإسلامي التي تجبر المسلمين على معاملة أهل الذمة معاملة حسنة، والآيات الدالة على ذلك عديدة منها قوله تعالى: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ"^(١)، ويقول عز وجل: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"^(٢)، وقوله تعالى: "وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ"^(٣) ويقول تعالى أيضاً: "لَا يَهَاجُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَالُوا لَكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"^(٤). إضافة إلى الأحاديث النبوية التي تحت على حسن معاملة أهل الذمة، مثل قوله ﷺ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يُرْجَ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ عَلَىٰ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"^(٥)، ويقول ﷺ أيضاً: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِداً أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بَغَيْرِ طَبِيبٍ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^(٦)، وعن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ، أن يؤقِّي لهم بعهدهم وأن يُقاتل من ورائهم ولا يُكَلَّفون إلا طاقتهم."^(٧)

- طبيعة وهدف الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا، والذي يتمثل في السعي لنشر الدعوة الإسلامية في أوساط أصحاب الديانات الأخرى، وتشجيعهم ودفعهم إلى اعتناق الإسلام باللجوء إلى الوسائل السلمية قدر الإمكان.

- إضافة إلى الرؤيا التي رآها موسى بن نصير عند استعداده للعبور إلى الأندلس، إذ رأى الرسول ﷺ وهو يأمره بالرفق بالمشركون،^(٨) بينما يورد المقرئ روايتين مختلفتين لهذه الحادثة، الأولى مفادها أن طارقاً رأى في منامه الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة يمشون على الماء، ويبشره النبي ﷺ بالفتح ويأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد.^(٩) والثانية أنه رأى النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار متقلدين السيوف ومتنكبين القسي، والنبي ﷺ يحثه على دخول الأندلس.^(١٠)

يدل تضارب الروايات حول هذه الرؤيا على أسطوريتها، إلا أن ما يمكن الاحتفاظ به منها، هو التزام الفاتحين بالرفق بالمشركون والوفاء بالعهد، ولهذا كله كانت للمستعربين^(١١) مكانة حسنة في المجتمع الأندلسي. فقد حرص المسلمون على ترك الحرية الكاملة

ومن مظاهر احترام السلطات الإسلامية في الأندلس للنصارى عدم تدخلها في التنظيم الكنسي لهم، بحيث ظلت أرض الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي مقسمة إلى نفس المناطق الكنسية التي كانت عليها أيام القوط، أي إلى ثلاث مطرانيات (طليطلة- إشبيلية- ماردة)، على رأس كل منها مطران، وكل منها تتكون من عدة أسقفيات، وكل أسقفية تتكون من عدة أبرشيات. وقد حافظ المسيحيون على كنائسهم وأديرتهم للجنسين، بحيث وصل عدد هذه الأديرة في ضواحي قرطبة لوحدها إلى حوالي خمسة عشر دير مسيحية وفق قوانين وأنظمة مسيحية.^(٣١)

وزيادة على كل ذلك فقد سمح المسلمون للمستعربين ببناء كنائس جديدة في قرطبة، من ذلك أن عبد الرحمن الداخل سمح لنصارى قرطبة ببناء كنيسة بدل نصف الكنيسة الذي اشتراه منهم بحوالي مائة ألف دينار ذهب أي ما يعادل خمس مائة كيلوغرام من الذهب،^(٣٢) بهدف توسيع مسجد قرطبة الجامع، مع العلم أن الفقه الإسلامي وبالأخص المذهب المالكي يمنع أهل الذمة سواء في المناطق المفتوحة صلحاً أو عنوة من بناء كنائس.^(٣٣) وظلت الكنائس في الأندلس تقوم بدورها الديني إضافة إلى الدور الاجتماعي المتمثل في عقد الزيجات وتعميد المواليد واختيار الأسماء لهم وتسجيل المبيعات والعقود بين المسيحيين،^(٣٤) كما ظلت الكنائس والأديرة محافظة على ممتلكاتها المتمثلة في الأموال والأراضي التي أوقفها عليها المستعربون؛ فدير رأس القديس فانسان أوقفت عليها أراضي زراعية واسعة جداً.^(٣٥)

والأهم من كل ذلك أن الوجود الإسلامي في الأندلس حرر النصارى فكراً، وأعطاهم حرية نقد الكنيسة،^(٣٦) فأصبح المستعرب يجزؤ على توجيه انتقاداته للكنيسة بكل حرية، لأن الإسلام ضمن له الأمن، وكفل له حرية العقيدة، ووضع حداً للاضطهاد الديني بين المسيحيين أنفسهم في الأندلس،^(٣٧) إضافة إلى تعلمهم حرية اختيار الأشخاص الذين يشرفون على شؤونهم الدينية كالمطارنة والأساقفة، وعدم السماح للحاكم بفرضهم عليهم؛ فعندما عزل عمر بن حفصون^(٣٨) الأسقف جعفر بن مقسم عن السقافة في ببشتر Bobastro وعوضه بحيوة، عارضه الرهبان وكبار نصارى دولته، واضطروه إلى إرجاع جعفر بن مقسم إلى منصبه.^(٣٩) هذه إذن إشارة سريعة إلى طبيعة المعاملة التي حظي بها نصارى الأندلس، والحرية الدينية التي منحت لهم، خاصة في عهد الدولة الأموية، والتي فاقت أحياناً حدود ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، مما سمح للكنيسة الأندلسية بالانتعاش والتفتح على مختلف الأفكار والاستفادة من التطور الفكري الذي كان يشهده العالم الإسلامي، في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة في الدول الأوروبية تعاني من الجمود والتخلف، نتيجة لمرور العالم المسيحي عموماً آنذاك بفترات مظلمة.

أمر بتعيين الأسقف الثاني على رأس أول أسقفية يتم شغورها في مطرانية إشبيلية (Sevilla).^(٤٠)

يتضح من خلال ذلك عدم تدخل الحكام المسلمين في شؤون المسيحيين، رغم أن الحاكم المسلم كان يُبلغ عند تعيين مسيحيين في أحد مناصب الواجهة الكنسية مثل مطران أو أسقف أو قس، كما كان للمستعربين في الأندلس الحرية المطلقة في التنقل سواء في الداخل أو نحو الخارج، إذ كان بإمكانهم الذهاب إلى بيت المقدس وبيت لحم والناصرية قصد الحج، مثل أسقف البيرة (Elvira) ربيع بن زيد (روسيموندو Rucimundo) الذي توجه إلى فلسطين للحج، وأسقف بلنسية (Valencia) الذي توجه إلى بيت المقدس لنفس الغرض سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وتوفي بها.^(٤١)

وفي مجال التعبد سمحت السلطات الإسلامية للنصارى في الأندلس بقرع الأجراس داخل الكنائس وخارجها، ويبدو أن ذلك كان أمراً عادياً ومألوفاً بين المسلمين لذا ظهر في أشعارهم وأعمالهم الأدبية. فقد بات أبو عامر بن شهيد^(٤٢) ليلة بإحدى كنائس قرطبة، وأثار انتباهه قرع النواقيس الذي هيج سمعه،^(٤٣) ويؤكد ذلك قوله في إحدى خمرياته:

وَتَرَنَمَ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ فَقَفَّتْ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ^(٤٤)

كما جاء على لسان ابن حزم الظاهري:

أَتَيْتَنِي وَهَلَالَ الْجَوْ مُطْلَعٌ فَبَيَّلَ قَرَعَ النَّصَارَى لِلنَّوَاقِيسِ^(٤٥)

وتواصل قرع النصارى للنواقيس في الأندلس على امتداد الحكم الإسلامي بها، ولذلك طالب الفقهاء المسلمون من الحكام منع النصارى من ذلك.^(٤٦) ورخص الحكام المسلمون للمواكب المسيحية بالسير في شوارع المدن الأندلسية، وحمل الصليب، وإيقاد الشموع،^(٤٧) وبالأخص أثناء الاحتفالات بالأعياد الدينية.

وقد حرصت السلطات الإسلامية في الأندلس على إيجاد تنسيق مع المؤسسات المسيحية، فقد كانت تستدعي من حين لآخر مجالس مسيحية تضم أساقفة ورهباناً وعرباً مسلمين وأسالة وأحياناً اليهود، بهدف مناقشة مشاكل المسيحيين وعلاقاتهم بأتباع الديانتين الأخريتين، الإسلام واليهودية،^(٤٨) منها مجمع القساوسة الذي عقد سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م ترأسه مطران طليطلة، بمساعدة مطران إشبيلية ومطران ماردة (Merida).^(٤٩) وقد اكتسبت الكنيسة الأندلسية خلال الوجود الإسلامي استقلاليتها عن روما مركز البابوية، وذلك بإقرار الحاكم المسلم لمطران الأندلس،^(٥٠) بينما كان هذا الأخير يعين من طرف البابا سابقاً، وبذلك أصبح للكنيسة الأندلسية شخصية متميزة، إذ أصبح لها طقوسها الخاصة بها المسماة بالطقوس المستعربية "el rito mozarabe"، وهي عبارة عن ترانيم وصلوات تؤدي بلغة عجمية أهل الأندلس، والتي هي مزيج من الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة (اللاتينية) والعربية، والتي ظلت سارية المفعول إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري (١٧م).^(٥١)

خاتمة

مما سبق يتبين: أن نصارى الأندلس استفادوا كثيرًا في ظل الحكم الإسلامي في عهد الدولة الأموية وبعدها، إذ حافظوا على معابدهم المختلفة وممتلكاتها، كما تمتعوا بحرية الملكية الفردية، وحرية العبادة، وإمكانية اعتلاء مناصب إدارية عليا، وترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، وتوجيه بعضهم انتقادات لبعض رجال الكنيسة. والأهم من ذلك كله أن الكنيسة الأندلسية أصبحت لها شخصية متميزة بعد انفصالها عن كنيسة روما. كل ذلك ساهم في تطور الكنيسة الأندلسية مقارنةً بنظيرتها في الممالك المسيحية في الشمال، وأصبحت مصدر تأثير في شمال شبه جزيرة إيبيريا خاصة وفي أوروبا عامة.

الهوامش:

- (١) الأريوسية مذهب مسيحي يقول بوحدانية الله عز وجل وبنوة عيسى بن مريم عليه السلام فقط، ينسب إلى أريوس. الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق أبي محمد محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت، ج ١، ص ٢٣٤ و ٢٣٤.
- (٢) سورة المائدة - الآية ٨.
- (٣) سورة الأنفال - الآية ٦١.
- (٤) سورة التوبة - الآية ٦.
- (٥) سورة الممتحنة - الآية ٨.
- (٦) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى ديب البغا، كتاب الجزية، باب من قتل معاهدا بغير جرم، الحديث رقم ٢٩٩٥، دار ابن كثير - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ج ٣، ص ١١٥٥.
- (٧) سليمان ابن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد معي الدين عبد الحميد، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات- الحديث رقم ٣٠٥٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د. ت، ج ٣، ص ١٧٠.
- (٨) البخاري، المصدر السابق، كتاب الجنائز- باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما- الحديث رقم ١٣٢٨، ج ١، ص ٤٦٩.
- (٩) حسين مؤنس، فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٤٤٠.
- (١٠) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧ م، ج ١، ص ٢٥٦.
- (١١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٥ / ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وتقديم إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ٢٣.
- (١٢) (los mozarabos): لفظ أطلق على نصارى الأندلس خصيصًا، وهم المسيحيون الذين ظلوا يعيشون جنبًا إلى جنب مع المسلمين في الأندلس، وتشبهوا بهم لغةً وزيًا.
- (١٣) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ١٠٣.
- (14) Duffourcq, La Vie Quotidienne dans l'Europe Médiévale Sous Domination Arabe, 1ere édition, Hachette, 1978. p73.
- (15) Simonet, Historia de los Mozarabes de España, Oriental Press, Amsterdam, 1967. P.122.
- (16) Duffourcq, Op. cit. P.71.
- (١٧) إيلوخي أو أولوخي (San Eulogio de Córdoba): رجل كنيسة من مواليد قرطبة سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م، كان شديد العداء للإسلام والمسلمين،

نفذ فيه حكم الإعدام سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م لجهده بسبب الإسلام والرسول محمد ﷺ.

(18) Simonet, Op. cit. P.481.

(19) Ibid, P. 126.

(20) Duffourcq, Op. cit. P.71.

(٢١) ابن شهيد: (٣٨٢ - ٤٢٦ هـ / ٩٩٢ - ١٠٣٥ م) أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد، من بني الوضاح، من أشجع، من قيس عيلان، أبو عامر الأشجعي: وزير، من كبار الأندلسيين أدبا وعلماء، مولده ووفاته بقرطبة، له أشعار وتصانيف بديعة منها كشف الدك وإيضاح الشك، وحانوت عطار، والتوايع والزوايع. ترجمته في نفح الطيب للمقرئ، ١ / ٦٢١، والأعلام للزركلي ١/١٦٣.

(٢٢) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢٥.

(٢٣) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢٤) ابن حزم الظاهري، طوق الحمامة في الألفة والألاف، اعتنى به وقدم له عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م، ص ٢٣.

(٢٥) ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، نشرها ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥ م، ص ٥٥.

(26) Simonet, Op. cit. P. 128.

(27) Ibid, P. 360.

(28) Duffourcq, Op. cit. P.83.

(٢٩) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٩٦.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٤٢٦ - ٤٩٩.

(31) Isidro de las Cagigas, Los Mozarabes, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 194٧. t 1 p58.

(32) Simonet, op.cit.- P. 201.

(٣٣) الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، بإشراف محمد حي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م - ج ٢، ص ٢٤٧.

(٣٤) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٥٠١.

(35) Christophe Picard, Le Portugal Musulman (VIII-XIII siècle) l'Occident d'Al Andalus sous domination islamique, Maisonneuve et Larose, Paris, 2000. P. 286.

(٣٦) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٨٧.

(٣٧) مصطفى الشكعة، المغرب والأندلس: آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص ٦٦.

(٣٨) ابن حفصون (٢٣٥ - ٣٠٥ هـ / ٨٥٠ - ٩١٨ م): هو عمر بن حفص (حفصون) بن عمر بن جعفر بن شتيم بن دميان بن فرغلوش بن إذفونش: ثائر من أهل الأندلس، تزعم أطول الثورات عمراً في الأندلس، بدأها سنة ٢٧٠ هـ / في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وتواصلت إلى غاية خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م). ينعتة المؤرخون باللعين والخبيث ورأس النفاق، اتخذ من ببشتر (Bobastro)، الواقعة في مقاطعة مالقة، جنوب شرق الأندلس، قاعدة له. ترجمته وأخباره في البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٢ / ١٠٥، وجذوة المقتبس للحمدي ص ٦٢٨.

(٣٩) ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م، ص ١٢٤.